رابعاً: الى أي مدى يمكن اعتبار تقدّم ظاهرة الحركات الاسلامية الفلسطينية تطويراً للاستجابة الفلسطينية للبعد الديني في التحدي المتمثّل بالغزوة الصهيونية؟

بداية، نلاحظ ان العامل الاسرائيلي، الذي بدأ فرضه على منطقتنا عقب الحرب العالمية الاولى، بعدما كرّس تقرير الخبراء البريطانيين والفرنسيين الذي عرف بوثيقة كامبل مورغان (رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت) للعام ١٩٠٧ أمر فرضه كمصلحة أوروبية، مترابطاً، أشدّ الترابط، بتوافق دولي على تفتيت المنطقة الذي رسمته اتفاقية سايكس ـ بيكو للعام ١٩١٦، المتكاملة مع وعد بلفور الذي أُصدر في العام التالي، والذي أتمّ تكريسه مؤتمر يالطا عقب الحرب العالمية الثانية، قد استهدف، أساساً، تحطيم وحدة تاريخ المنطقة ومحاصرة احتمالات تجدّد ازدهار دورها الحضاري. وقد نجح هذا العامل في احداث انقطاعات في الاشكال الفكرية للمنطقة، وفي حركة تطور هذه الاشكال، وقاد الى توسيع تغريب مساقها الحضاري، فيما كاد يتحوّل الى «استقالة تاريخية وفكرية جماعية»، على حدّ وصف د. برهان غليون. لقد أجهض هذا العامل الاسرائيلي، في البدء، التطوّر الاصلاحي في المنطقة، الذي عجزت بنيته بطيئة التطور عن الاستجابة للتحدي الصهيوني بما ينسجم مع خطورته ومدى تدميره، ممّا أتى بالتطلع القومي بديلاً من التطور الاصلاحي، محمولاً على أداة تحدّ سريع، عسكرية، أو انقلابية، أو شبه ثورية، لم تلبث ان سقطت بدورها في هزيمة العام ١٩٦٧ وما تلاها، ونجم، وما زال ينجم، عنها، سقوط قاس قبل ان تنضج أفكارها ومؤسساتها وممارساتها. في هذه المرحلة، التي ساد فيها دور التطلع القومي، قصر الوعي العام للنظام العربي «عن ادراك ان البؤرة الصهيونية، التي زرعت بالقوة والقهر في فلسطين عبر توافق دولي نادر الحدوث، لا تسمح لمنطقتنا باستقلال حقيقي، أو نهضة أصيلة، أو تطوّر سليم، لأنها مزروعة، أصلاً، للسيطرة على المنطقة، واخضاعها، وارباك تطورها، والتحكّم بمسار مستقبلها... ونتيجة لقصور وعينا العام عن هذا الادراك، أخذ التعاطي مع هذا الصراع وادارته من قبل الطرف المستهدف بالغزو الصهيوني، أي العالم العربي والاسلامي ومركزه الفلسطيني الذي كان الهدف المباشر للضربة الاولى لهذا الغزو، ابعاداً كارثية منذ البدء، بما ساعد البؤرة الصهيونية على فرض وجودها وشروطها، وتنفيذ الكثير من غاياتها بيسر. في هذا التعاطي، كانت السذاجة، والخفّة، والتقلّب، وانعدام التوازن بين الاهداف والوسائل، سمات ادارتنا لهذا الصراع، وانعكاساً صارخاً لأزمتنا الحضارية الراهنة... وبينما توالت التبجّحات واتسع تيار التمنّن على الشعب الفلسطيني من قبل الانظمة والقيادات والمتكسبين منها بأنها 'تضحّي' من أجله، و'تقاتل' معركته، و'تحرم شعوبها من اجل فلسطين'، ثبت ان اتفاقية سايكس ـ بيكو لم ترسم، فقط، الحدود الجغرافية للكيانات العربية المصطنعة، وانما رسمت كذلك حدود الفعل والقدرة على التصرّف لتلك الكيانات، وهيّأت أسباب اجهاض أي تمرّد على تلك الحدود، التي في اطارها، ليس لأي من تلك الكيانات ان يقاتل الغزوة الصهيونية في معركة مصيرية وحاسمة، حتى لو توفّرت النيّة...»[١].

واذ استوعبت ثلاثة أطر حركة المنطقة السياسية عقب اقامة اسرائيل في العام ١٩٤٨، القومي بشقيه الأبرز، «البعث» وعبدالناصر، والماركسي بصيغه المختلفة محدودة التأثير والانتشار، والاسلامي بتياره التنظيمي الأقدم الاخوان المسلمين، اضافة الى الصيغ المتأرجحة بين القبلية والعائلية التقليدية والتغريب، فقد كان التيار القومي أكثر قوة وهيمنة على ادارة الصراع، ونفوذاً في التعبئة من اجله في الخمسينات والستينات، الى ان انتهى به الامر الى وضع تنازلي تراجعي عند هزيمته في حزيران (يونيو) من العام ١٩٦٧؛ ولم يلبث ان آل الى عجز عندما «انتشرت التفجيرات